ولم تزدهر اليديشيه، كلغة ادبية، الا في مرحلة مفصلية في تاريخ شرق اوروبا، وهي مرحلة التحديث المتعثر في أواخر القرن التاسع عشر. اذ توقفت عمليات الدمج هناك، وبدأ اعضاء الطوائف اليهودية في روسيا وبولندا وغيرهما ينصرفون عن تحديث أنفسهم لغوياً، وانصرفوا عن دراسة لغة الوطن الام الى دراسة العبرية واليديشيه، فانتجوا ادباً باليديشيه يقال انه يرقى الى مستوى الاعمال الادبية الجادة. ولكن لم يقدر لهذه المرحلة أن تستمر طويلاً، اذ أنه، بنشوب الثورة البلشفية، استؤنف التحديث مرة أخرى وفتحت فرص الدمج والحراك الاجتماعي أمام اعضاء الطائفة اليهودية، فانصرفوا عن ارسال اطفالهم الى المدارس اليديشيه، وانخفض عدد المتحدثين باليديشيه في الاتحاد السوفياتي من حوالى ٩٥ بالمئة مع نهاية القرن التاسع عشر الى ١٩ بالمئة في الوقت الحاضر (معظمهم من العجزة). وقد اختفت اليديشيه تماماً، تقريباً، في الولايات المتحدة أيضا، بسبب معدلات الاندماج المتزايدة بين اليهود.

الحدودية وتفاقم المسألة اليهودية

والغيتو هو التجسيد المعماري المتعيّن لهذه الحدودية. فهو يقف داخل المدينة، ولكنه ليس منها، اذ تفصله اسوار عالية عن بقية المدينة، كما انه، احياناً، كان يوجد على اطراف المدينة، حتى يمكن عزل اليهود داخل حدودهم.

وقد كان لحدودية اعضاء الاقليات اليهودية أعمق الاثر عليهم. فهم، نتيجة لوضعهم هذا، التصقوا، الى حد كبير، بالحاكم، اذ انهم، باعتبارهم اداته في الاستغلال، كانوا عناصر مرفوضة مهددة بالثورات الشعبية، مما جعلها تحتاج الى دعم عسكري من السلطة. ولعل التصاقهم الكامل بالحاكم يظهر في وضعهم القانوني في العصور الوسطى الغربية، اذ انهم كانوا يعدّون ملكية خاصة للملك، يؤدون له الضريبة، ويقوم هو بحمايتهم. وكانت ديّة اليهودي تدفع للحاكم وليس لأهل اليهودي (كانت عقوبة قتل اليهودي، أو ابنائه، في بعض بلاد اوروبا، مثل عقوبة قتل او ايذاء الفرسان، بل وأعلى في بعض الاحيان. وقد حاول بعض السكان ان يخفض العقوبة، بحيث تصبح مساوية لعقوبة قتل أو ايذاء فلاح!). وقد كان هذا وضع يهود المانيا ويهود بولندا، بشكل عام، واوكرانيا، بشكل حاد ودرامي؛ فهم كانوا ممثلين للقوة الحاكمة بين المحكومين، يعيشون في مدن محصنة، ويتعبدون داخل معابد يهودية تشبه القلاع، تعسكر بالقرب منهم القوات البولندية لحمايتهم!

وبسبب حدودية اليهود، ونتيجة لها في الوقت عينه، كان العالم الغربي ينظر الى اليهودي باعتباره أداة ووسيلة، وليس هدفاً أو غاية؛ والوسيلة لا قيمة لها في حد ذاتها، اذ يتم الاحتفاظ بها بقدر نفعها وتأديتها للوظيفة المنوطة بها. ومن هنا، حينما بدأ الحوار بخصوص حقوق اليهود، في أواخر القرن الثامن عشر، دار الحوار في اطار مدى نفع اليهود وجدواهم.

وقد ساهمت حدودية اليهود داخل الحضارة الغربية في تفاقم المسألة اليهودية فيها وفي تحديد شكل الحلول الرامية الى حلّها. فحدوديتهم الوظيفية والمعنوية تركتهم خارج التطورات العميقة التي حدثت داخل المجتمع الغربي، ابتداء من القرن السادس عشر، وقدم عصر النهضة، ثم عصر الاصلاح الديني، وعصر الرومانسية (وهي كلها تعبير عن الانقلاب الصناعي ـ الرأسمالي) واليهود بمعزل عن الغرب معنوياً، وعلى الرغم من تواجدهم فيه.

اما الحدودية الجغرافية، فقد عمّقت، وبشكل حاد، ابعاد هذه المسألة. ولنأخذ، على سبيل